

سِفْرُ أَيُّوبَ

المحاضرة ٣: اللَّيْلَةُ الْحَالِكَةُ عَلَى النَّفْسِ

ديرىك توماس

وَصَلْنَا إِلَى الْأَصْحَاحِ ٣ مِنْ سِفْرِ أَيُّوبَ. إِنَّهُ مَقْطَعٌ "لَيْلَةٍ حَالِكَةٍ عَلَى النَّفْسِ" وَرُبَّمَا لَا يَفُوقُ هَذَا الْأَصْحَاحُ ظُلْمَةً فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ كُلِّهِ سِوَى مَقْطَعِ رَبَّنَا يَسُوعَ وَهُوَ فِي جَسَسِيمَانِي. فَدَعُونَا نَقْرَأُ بِضَعِ آيَاتٍ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٣. "بَعْدَ هَذَا فَتَحَ أَيُّوبُ فَاةً وَسَبَّ يَوْمَهُ". كَمِ الْوَقْتِ الَّذِي مَرَّ بَعْدَ الْأَصْحَاحَيْنِ ١ وَ٢، مُنْذُ أَنْ فَقَدَ أُنْبَاءَهُ، وَفَقَدَ عَافِيَتَهُ؟ أَتَعْلَمُونَ، نَحْنُ نُنْفَكِرُ هُنَا أَنَّهُ لَرُبَّمَا قَدْ مَرَّتْ أَسَابِيعٌ، أَوْ شُهُورٌ.

لَيْتَهُ هَلَكَ الْيَوْمُ الَّذِي وُلِدْتُ فِيهِ، وَاللَّيْلُ الَّذِي قَالَ: قَدْ حَبِلَ بِرَجُلٍ. لِيَكُنْ ذَلِكَ الْيَوْمُ ظَلَامًا. لَا يَعْتَنِي بِهِ اللَّهُ مِنْ فَوْقٍ، وَلَا يُشْرِقُ عَلَيْهِ نَهَارٌ. لِيَمْلِكُهُ الظُّلَامُ وَظِلُّ الْمَوْتِ. لِيَحِلَّ عَلَيْهِ سَحَابٌ. لِتَرْعَبُهُ كَاسِفَاتُ النَّهَارِ. أَمَّا ذَلِكَ اللَّيْلُ فَلْيَمْسِكْهُ الدُّجَى، وَلَا يَفْرَحْ بَيْنَ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَلَا يَدْخُلَنَّ فِي عَدَدِ الشُّهُورِ. هُوَذَا ذَلِكَ اللَّيْلُ لِيَكُنْ عَاقِرًا، لَا يُسْمَعُ فِيهِ هَتَافٌ. لِيَلْعَنَهُ لِأَعْنُو الْيَوْمِ الْمُسْتَعِدُّونَ لِإِيقَاطِ التَّنِينِ. لِتُظْلِمَ نُجُومُ عِشَائِهِ. لِتَنْتَظِرَ الثُّورَ وَلَا يَكُنْ، وَلَا يَرَّ هُدْبَ الصُّبْحِ، لِأَنَّهُ لَمْ يُعْلِقِ أَبْوَابَ بَطْنِ أُجْيٍ، وَلَمْ يَسُرَّ الشَّقَاوَةَ عَنْ عَيْتِي.

وَيُؤَاصِلُ مَرَاتَهُ طَوَالَ الْأَصْحَاحِ ٣. رُبَّمَا هَذَا يُشْبِهُ الْآيَةَ الْخِتَامِيَّةَ لِلْمَزْمُورِ ٨٨، وَهُوَ قَصِيدَةٌ لِهَيْمَانَ الْأَزْرَاجِيِّ، الَّتِي تَقُولُ: "مَعَارِفِي فِي الظُّلْمَةِ" أَوْ بِحَسَبِ تَرْجُمَةٍ أُخْرَى وَارِدَةٍ تَقُولُ: "وَبُتُّ رَفِيقَ الظُّلْمَاتِ". صَعُوبًا فِي ذَهْنِكُمْ، قَبْلَ إِصْدَارِ الْأَحْكَامِ عَلَى هَذَا الْمَقْطَعِ، لَقَدْ ذَكَرَ إِزْمِيَا هَذَا الْمَقْطَعِ فِي الْأَصْحَاحَيْنِ ١٩ وَ٢٠ مِنْ نُبُوتِهِ. بَعْدَمَا عُدَّ بِإِزْمِيَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فِي الْمِقْطَرَةِ، فِي الْعَدِّ أَطْلَقَ سَرَاحَهُ. أَعْتَقِدُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِهِ، صَاحِبٌ أَنْ النَّصَّ لَا يَقُولُ ذَلِكَ، لَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَيْتِهِ ثُمَّ نَطَقَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَيُحْيِلُ إِلَيْكَ كَمَا لَوْ كَانَ هَذَا الْمَقْطَعُ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٣ مِنْ سِفْرِ أَيُّوبَ مَا قَدْ حَفِظَهُ إِزْمِيَا مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. مَا مَقَاطِعُكُمْ الْمُفْضَلَةُ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؟ الْمَقْطَعُ الَّذِي تَحْفَظُونَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ يَقُولُ شَيْئًا مَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَقَدْ نَطَقَ إِزْمِيَا بِكَلِمَاتِ أَيُّوبَ عَيْنَهَا مِنَ الْأَصْحَاحِ ٣.

إِنَّهُ يُحْجِلُنَا حَقًّا! لِمَاذَا هَذَا الْأَصْحَاحُ هُنَا؟ لَوْ كُنْتُمْ مَنْ يُنْسِقُ الْأَسْفَارَ الْمُقَدَّسَةَ. أَعْلَمُ بِخُطُورَةِ طَرْحِ السُّؤَالِ السَّابِقِ، فَأَنَا لَا أَقْصِدُ أَنْ أَكُونَ قَلِيلَ الاحْتِرَامِ أَوْ مَا شَابَهُ. لَكِنِّي إِنْ كُنْتُمْ تُحَاوِلُونَ اتِّخَاذَ قَرَارٍ بِمَا يَتَّبِعِي أَنْ يُضَمَّ إِلَى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ الْمُعْصُومَةِ، هَلْ كُنْتُمْ لِتَحْفَظُوا مَكَانًا لِهَذَا الْأَصْحَاحِ ٣ مِنْ سِفْرِ أَيُّوبَ، الَّذِي فِيهِ يَلْعَنُ أَيُّوبُ الْيَوْمَ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ، مُتَمَسِّيًا أَنَّهُ لَمْ يُولَدْ قَطُّ، قَائِلًا إِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي قَالَتْ فِيهَا الْقَابِلَةُ: "قَدْ حَبِلَ بِرَجُلٍ" كَانَتْ قَدْ حَيَّتْ مِنَ التَّارِيخِ؟ رُبَّمَا قَدْ أُجْرِيَتْ مُحَادَثَاتٌ فِي عُرْفِ الْمَشُورَةِ ذَاتِ الْإِصْأَةِ الْخَافِتَةِ نَطَقَ فِيهَا بِمِثْلِ هَذِهِ

العبارات والكلمات. إنها مرثاة! إنها مرثاة لعن! ليست موجهة إلى أي كائن بعينه. فهي ليست موجهة تحديداً وخاصةً إلى الله. ربما ينبغي لنا رؤية الأمر كآته شدة التقلبات التي تُصيبنا وتثقلنا من النشوة إلى الاكتئاب. هذا بكل تأكيد مؤشراً إلى ما يحدث لعدد عظيم من البشر حين يمرون بتجربة فقدان أو معاناة أو ضعف في العافية. تمر عليهم أوقات نشوة عظيمة، وأوقات سلام خاص، وأوقات شعور خاص بحضور الله. ثم تمر عليهم أوقات أخرى يبدو فيها الله بعيداً، فتخيم عليهم ظلمة حالكة ويتمنون حينها لو أنهم لم يولدوا.

فقبل المسارعة إلى انتقاد هذا المقطع، اعتقد أنه يجب أن ننصت إلى أيوب. فالأمر الأول الذي أود أن نفكر فيه يتمثل في الخلفية؛ فهناك أربعة أمور بالتحديد. الأمر الأول هو أن الوقت مر. فالوقت كفيلاً بتغيير مزاجك، ووجهة نظرك، والطريقة التي ترى بها الأمور. الأسبوع قد يستمر أمداً طويلاً. في السياسة، الأسبوع قد يغير كل شيء. وكذلك يستطيع تغيير كل شيء في الحياة المسيحية. ٦ أسابيع بعد فاجعة الفقدان. لقد قيل لي منذ وقت طويل، عندما كان قد مرّ أحد ما بتجربة الحرمان، عليك انتقاد حالهم بعد ٦ أسابيع. اتصل بهم، أو أرسل لهم برفقة؛ لأنه في الغالب ما سيكون المزاج مختلفاً مع مرور الزمن.

ثانياً الأصدقاء. ها قد جاء الأصدقاء. لقد وصلوا مع نهاية الأصحاح ٢. وفي الواقع لم يتفوهوا بكلمة وتصرفوا بطريقة أوحث أنهم كانوا يتوقعون أن يموت أيوب. كذلك أبدت تصرفاتهم وصمتهم وذري الرماد على رؤوسهم وما إلى ذلك. كل هذا كان ليّزماً إلى حقيقة أنه بقدر ما كان يهمهم أيوب، لم يكن لديهم ما يقولونه وأيوب كان في حكم الميت. وزوجة أيوب حثته على أن يلعن الله ثم يموت. وربما حينها كان يفكر في هذا الافتراح. ربما هذا ما كان ينبغي له فعله. دح الأمر ينتهي. ويفارق هذه الحياة.

ثم إن الله كان في صمت، الوضع الذي سيرداد بالطبع في الأصحاحات التالية. لم يكلمه الله أبداً، لا برؤية، ولا بكلمة، ولم يوجد نبي يشير عليه، لا شيء البتة.

إن المشاعر والأفكار التي دارت في ذهن أيوب وعبر عنها هنا، صادمة وصاعقة. فقد لعن اليوم الذي ولد فيه، حين قالت القابلة "قد حبل برجل". إذ قال: "ولا يدخلن في عدد الشهر". وفي وقت الفرح، في الآية ٧ يقول: "لا أسمع فيه هتاف". أتعلمون، حين أسترجع ذكرى ميلاد ابنتي. وأسترجع ذكرى ميلاد ابني. كان في ذلك التوقيت في بريطانيا نوع من الوعي الاجتماعي بضرورة وجود الزوجين وحضورهما وقت الولادة. فقبل ذلك بوقت قصير، لم يكن يحدث هذا. كان هذا في حفبة ما، في زمن الستينيات أو السبعينيات أو ما يقرب من ذلك، على الأقل في بريطانيا. وكنت هناك وقتئذ، وأتذكر شعور الفرح والسرور، وشعور النشوة. فهو يريد لويثان، في الآية ٨ من الأصحاح ٣، ذلك الوحش الكاسر، وحش الخراب والفضى. وسعود إليه لاحقاً. فهو مذكور هنا، ومذكور مرة أخرى

في الأصحاحات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ من سفر أيوب. مهما كان هذا المخلوق تحديداً، هذا مخلوق خراب، هذا مخلوق مرتبط بكل ما هو شر، فلينهض هذا الوحش ويلعن اليوم الذي ولدت فيه، وليمنح أبداً كما لو أنه لم يوجد". أما النصف الثاني من الأصحاح ٣ عبارة عن رثاء كامل صريح. فيه يتمنى أيوب لو لم يكن قد ولد، ويضح سائلاً من الأسئلة. إنها معركة، إنها معركة إيمانية تُشن، على إيمانه بالله، على إيمانه بما يكون عليه الله. فيقول في الآية ١١: "لم ألمت من الرجم؟ عندما خرجت من البطن، لم ألم أسلم الروح؟ لماذا أعانتني الركب، ولم الثدي حتى أضع؟ لأني قد كنت الآن مضطجعا ساكناً. حينئذ كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيري الأرض، الذين بنوا أهراماً لأنفسهم، أو مع رؤساء لهم ذهب، المالعين بيوتهم فضة".

وما إلى ذلك. جنين جهيض. هذا ليس انتحاراً. هناك متسع من الوقت للحدث عن الانتحار. فأنا كنت أعرف مؤمنين، مسيحيين حقيقيين، وضعوا حداً لحياتهم بأنفسهم. لقد فقدوا كل المعنى بالهدف في هذا العالم، أيًا كان سبب ذلك. كما أو من بأن المؤمنين، أبناء الله المولودين ثانية، الذين انتحروا قد خلصوا، وهم الآن في محضر الله. كما أنني قد مررت بتجربة حضور في الغالب عشرات الجنازات لمثل هذه الحوادث. لكن هذا ليس ما يتحدث عنه النص. فما يقوله أيوب، كما اعتقد: "فليقم الله بذلك. فليمنح هذا اليوم كما لو أنني لم أولد قط". هو يتحدث عن الحياة هنا كما لو أنها بؤس. انظروا إلى الآية ٢٠: "وحياة لمري النفس؟" وفي الآية ٢٤، يتكلم عن الأبن والزفات. وفي الآية ٢٥ يتكلم عن أن ارتعاب كوابيس الليل عدت حقيقة: "لأني ارتعاباً ارتعبت فأتاني، والذي فرغت منه جاء علي". وفي الآية الأخيرة يقول: "لم أطمئن ولم أسكن ولم أسترح، وقد جاء الرجز".

لا يمكنني تخيل أننا سترغب في أن يكون هذا الأصحاح هو أصحاحنا المفضل من الكتاب المقدس. إذ يحيل النص قدراً كبيراً من التهكمية هنا، وقدراً من العدمية هنا. إنه ظلمة قاتمة. عندما فقد سي. إس. لويس زوجته كتب عن هذا الشعور، عن تجربة الفقدان. فعبر عما شعر به قائلاً، بعد مرور شهر من فقدان زوجته، إنه شعر بتلك التهكمية. فقد عمره هذا الشعور وتساءل: ما الهدف من كل هذا؟ ما القصد من كل هذا؟ إن الحياة تُشبه سراً. فظن أنه "ما من هدف من الحياة"، وعمره هذا التمط المزاجي.

لقد قدر لنا المعاناة. إنها فصل من فصول الحياة. حتى إنه قد قيل لنا: "طوبى للحراني". فأنا أقبل الأمر. لم أترك أي شيء لم أساوم عليه. بالطبع، الأمر يختلِف حين يصيبنا نحن أنفسنا، وليس الآخرين. وفي الواقع، ليس في الخيال. ليس أي، كما أظن، عرصة بشكل كبير للتخلي عن الإيمان بالله. إنما الخطر الحقيقي ينبع من الإيمان بمثل تلك الأمور المروعة بشأن شخصه. فالاستنتاج الذي أخاف منه ليس "الاستنتاج أنه ما من إله في النهاية"؛ بل "السؤال: هل هذا ما يبدو عليه الله

حَقًّا؟ كَفَّ عَن خِدَاعِ نَفْسِكَ! مَاذَا يَعْنِي الْبَشَرُ حِينَ يَقُولُونَ: "أَنَا لَا أَخَافُ مِنَ اللَّهِ لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ إِلَهٌ صَالِحٌ؟" هَلْ سَبَقَ لَهُمْ أَنْ ذَهَبُوا إِلَى طَيِّبِ أَسْنَانٍ قَبْلًا؟ سَوَاءٌ أَمْسَكَتَ بِذِرَاعِي مَقْعِدِ طَيِّبِ الْأَسْنَانِ أَوْ أَرَخَيْتَ يَدَيْكَ عَلَى سَاقَيْكَ، لَا يَهُمُّ فَالْمَثْقَابُ يَقُومُ بِعَمَلِهِ.

هَذَا مَا قَالَهُ سَيِّ أَسْ لُويس. نَعَمْ بِالطَّبَعِ ذَهَبَ لُويسُ إِلَى عِيَادَةِ أَسْنَانٍ بِرِيْطَانِيَّةٍ.

نَعَمْ، يَا لَهُ مِنْ أَصْحَاحٍ مُحْزِنٍ لِلْعَايَةِ. يَسُودُهُ الْحُزْنُ وَتَعْتَرِيهِ الْبَلِيَّةُ وَتُحْمِمُ عَلَيْهِ الظُّلْمَةُ؛ كَالْمَزْمُورِ ٨٨ حَيْثُ تَقُولُ الْآيَةُ الْآخِرَةُ: "مَعَارِفِي فِي الظُّلْمَةِ". يَا لَهَا مِنْ ظُلْمَةٍ حَالِكَةٍ، إِنْ كَانَ الصَّدِيقُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَكَ هُوَ الظُّلْمَةُ.

الآن، أريد أن أطرَحَ سُؤالاَ أو سُؤالَيْنِ مِنْ هَذَا الْأَصْحَاحِ. بِمَاذَا نَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا الْأَصْحَاحِ؟ كَيْفَ يَنْبَغِي لَنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَسِيحِيِّينَ أَنْ نَفْهَمَهُ؟ كَمَا أَرَعَبُ فِي الْحَدِيثِ عَنِ ٤ أُمُورٍ.

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ يَتَعَلَّقُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ الْمَعْصُومَةِ، أَيِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. كَتَبَ رِجَالُ اللَّهِ مَا قَادَهُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ لِكِتَابَتِهِ، فَقَدْ كَانُوا مَسُوقِينَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ. "كُلُّ الْكِتَابِ"، وَهَذَا يَكْتُبُ بُولُسُ إِلَى تَيْمُوثَاوُسَ، مُتَحَدِّثًا عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، "كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحَى بِهِ مِنَ اللَّهِ". وَهُوَ يَسْتُخْدِمُ كَلِمَةً بَعَيْنَهَا هِيَ: ثِيُونِيسْتُوسُ (*theopneustos*) فَكُلُّ الْكِتَابِ هُوَ نِتَاجُ أَنْفَاسِ اللَّهِ، كَالْأَنْفَاسِ الَّتِي تَخْرُجُ فِي صَبَاحِ يَوْمٍ بَارِدٍ. نَحْنُ نَعِيشُ فِي فُلُورِيدَا، فَلِذَا عَلَيْنَا الْاسْتِعَانَةَ بِمُخَيَّلَتِنَا الْآنَ عَنِ الصَّبَاحِ الْبَارِدِ. فَحِينَ تَتَنَفَّسُونَ، تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَرَوْا أَنْفَاسَكُمْ. تَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَةَ ذَلِكَ، ذَلِكَ النَّفْسِ أَمَامَ وُجُوهِكُمْ. فَقَدْ تَنَفَّسَ اللَّهُ، فَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. فَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟ الْأَصْحَاحُ ٣ مِنْ سِفْرِ أَيُّوبَ. هَذَا مَا هُوَ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ كَلِمَةِ اللَّهِ الْمَعْصُومَةِ، وَلِذَا فَهُوَ "نَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّادِيبِ الَّذِي فِي الْبِرِّ، لِكَيْ يَكُونَ إِنْسَانُ اللَّهِ كَامِلًا، مُتَاهَبًا لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ".

فَهَذَا الْأَصْحَاحُ يَحْمِلُ تَعْلِيمًا مِنْ أَجْلِكُمْ وَمِنْ أَجْلِي. كَثِيرًا مَا أَفْكُرُ فِي الْأَمْرِ هَكَذَا. أَنَا أَسَافِرُ كَثِيرًا، سَفَرِيَّاتٍ كَثِيرَةً جِدًّا. أَسْتَقْبَلُ الطَّائِرَةَ كَثِيرًا. لَطَالَمَا كَانَ الْأَمْرُ مُمْتَعًا. لَكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ كَذَلِكَ. أَصْبَحَ فِي الْعَالِبِ نَقِيضَ الْمُتَعَةِ. وَأَنْتُمْ بِدَاخِلِ ذَلِكَ الصُّنْدُوقِ الْمَعْدِنِيِّ، وَحَوْلَكُمْ أَنْاسٌ مُلَاصِقِينَ لَكُمْ، وَأَنْاسٌ بَعَيْنِهِمْ حَوْلَكُمْ مُلَاصِقِينَ لَكُمْ. وَأَحْيَانًا، حِينَ تَسْتَقْبَلُونَ إِحْدَى تِلْكَ الطَّائِرَاتِ الصَّغِيرَةِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعِيشُونَ فِي مَدِينَةِ كُولُومْبِيَا بِكَارُولِينَا الْجَنُوبِيَّةِ، كَمَا أَعِيشُ أَنَا، أَوْ مِثْلَمَا اعْتَدْتُ أَنْ أَعِيشَ فِي مَدِينَةِ جَاكْسُونِ بُولَايَةِ مِيسِيسِبي، فَفِي الْعَالِبِ مَا تَكُونُ الطَّائِرَةُ الْمُكْمَلَةُ إِلَى مَدِينَةٍ دَيْلِنَا إِحْدَى الطَّائِرَاتِ الصَّغِيرَةِ، وَهِيَ طَائِرَاتٌ كَنَدِيَّةٌ نَفَائَةٌ ثُنَائِيَّةٌ الْمُحَرِّكِ، وَقَدْ صُمِّمَتْ لِمَنْ طُولُهُمْ لَا يَتَعَدَّى الْمِثْرَ وَالنِّصْفَ وَأَوْزَانُهُمْ لَا تَتَعَدَّى ٥٠ كِيلُو جَرَامًا، وَنَحْوَالِ إِرْكَابِ جَمِيعِ هَؤُلَاءِ الرُّكَابِ وَأَمْتِعَتَهُمْ فِي الطَّائِرَةِ، وَهُنَاكَ إِحْدَى الْمُضِيفَاتِ أَوْ أَحَدَ الْمُضِيفِينَ الَّذِي يُحَاوِلُ الْإِشَارَةَ إِلَى حَقِيقَةِ وُجُودِ أَسْفَلِ مَقْعِدِي سُرَّةَ نَجَاةٍ وَصَفَّارَةٍ،

وَسَيُضِيءُ ضَوْؤُهُ خَافِتٌ، بِمِلاَمَسَةِ المَاءِ، سَيُضِيءُ حِينَ يَلامِسُ المِياةَ. فِي كَنِيسَتِي، الكَنِيسَةِ المَشِيخِيَّةِ الأُولَى فِي كُولومبِيَا، أَحَدُ الأَعْضاءِ الَّذِي مَرَّ بِتَجْرِبَةٍ مأسَاةٍ رِحْلَةٍ جَوِّيَّةٍ مُرْعَبَةٍ. مأسَاةٌ قُتِلَ فِيهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ لِلغَايَةِ. إِذْ قَدِ اصْطَدَمَتِ الطائِرَةُ بِالْيَابِسَةِ وَتَحَطَّمَت. لَكِنَّهُ قَدِ نَجَا مِنْهَا. وَحِينَ أَذَلِّي بِاخْتِبَارِهِ، كَانَ ما جازَ بِهِ يَحْبَسُ الأَنْفَاسَ، وَكَذَلِكَ حَقِيقَةُ نَجَاتِهِ مِنْهَا. فَرجائي يَسْتَنِدُ إِلى امْتِلاكي لِسُتْرَةِ نِجاةٍ وَصَفارَةٍ وَضَوْءٍ.

أَتَعَلَّمُونَ، لَمْ أَنظُرْ قَطُّ لِأَرى ما إِذا كَانَتْ فِي مَوْضِعِهَا. مِنَ المُفْتَرَضِ أَنَّها أَسْفَلُ مَقْعَدِكَ أَوْ إِِنْ كَانَتْ فِي دَرَجَةِ رِجالِ الأَعْمالِ، سَتَكُونُ فِي مَكَانٍ آخَرَ رُبَّمَا فِي جِرابٍ صَغِيرٍ عَلى الجانِبِ أَوْ فِي مَكَانٍ آخَرَ. لَكِنَّها يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَوْجُودَةً. لَكِنِّي فِي الوَاقِعِ لَمْ أَتَحَقَّقْ مِنْ وُجُودِها أَبَدًا. لَمْ أَقُلْ قَطُّ، كَمَا تَعَلَّمُونَ، "انْتَظَرُوا! أَوْقِفُوا كُلَّ شَيْءٍ!" وَأُخَيِّ بِيَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ عَلى أَرْضِ الطائِرَةِ لِأَبْحَثَ وَأَتَأَكَّدَ، وَأَتَفَحَّصَ تارِيخِها، هَلِ انْتَهَتِ مُدَّةُ صِلاحيَّتِها؟ لَكِنِّي أحيانًا أَقولُ فِي قِرارَةِ نَفْسي: "حَسَنًا، أَنَا سَعِيدٌ أَنَّها فِي مَكَانِها. رُبَّمَا سَأَحْتَاجُها فِي يَوْمٍ ما. أَرْجُو أَلَّا أَحْتَاجُ إِلَيْها. أَرْجُو أَلَّا أَحْتَاجُ إِلَيْها. لَكِنِ رُبَّمَا، سَأَحْتَاجُ إِلَيْها فِي يَوْمٍ ما". كَذَلِكَ الهُبُوطُ عَلى النَهْرِ فِي نِيُورِوكَ. جَمِيعُكُمْ يَعْرِفُ هَذَا الأَمْرَ. وَقَدِ نَجَا كُلُّ مَنْ كانَ عَلى مَتْنِها. يا لَها مِنْ تَجْرِبَةٍ رَائِعَةٍ، بِأَنْ يَتِمَّ كُلُّ فَرْدٍ مِنَ النِجاةِ. كائِنًا جَمِيعُهُمْ يَرْتَدُونَ سُتراتِ نِجَاتِهِمْ. أَيُمْكِنُكُمْ تَخِيلُ النِشْوَةَ-حِينَ تَهْبِطُونَ عَلى نَهْرِ هَدَسُونِ، وَأَنْتُمْ تُفْتَشُونَ وَتَبْحَثُونَ لِشُجُورِها، وَها هِيَ، سُتْرَةُ النِجاةِ، ثُمَّ تَرْتَدُونَها، وَتَشْعُرُونَ بِالأَمانِ.

فَهَذَا الأَصْحاحُ كَسُتْرَةِ النِجاةِ. فَأَنَا لَمْ أَمُرَّ قَطُّ بِما فِي الأَصْحاحِ ٣ مِنْ سِفرِ أَيُوبَ. وَلا أَعْتَقِدُ قَطُّ أَنِّي حَتَّى قَدِ أَقْتَرَبُ مِنْهُ. نَعَمْ، مَرَرْتُ بِأَيامِ مَرِيضَةٍ. فَأَنَا مِنْ شُعُوبِ القِلْطِ. دائِمًا ما يَكُونُ نِصْفُ الكُوبِ فارِغًا. حِينَ كَانَتْ ابْنَتِي لا تَرالُ فِي ١١ أَوْ ١٢ مِنْ عُمُرِها، أَهدَثَنِي صُورَةً لِشَخْصِيَّةِ إِيو (Eeyore) الكَرْتُونِيَّةِ. لَأَنَّهُ كانَ عِيدَ مِيلادِي. فَكانَ إِيو يَقُولُ: "طابَ يَوْمُكَ، إِِنْ كانَ يَوْمًا طَيِّبًا، الأَمْرُ الَّذِي كُنْتُ أَشكُّ فِيهِ". فَاسْتَشَعَرَتْ ابْنَتِي أَنَّ هَذَا وَالذُّها. فَهُوَ يُشِبُّهُ إِيو. وَمَا زِلْتُ أَحْتَفِظُ بِها عَلى الحائِطِ فِي المَنْزِلِ. دائِمًا ما تُضْحِكُنِي بَعْضُ الشَّيْءِ لِأَنَّها تُضْرِبُ عَلى وَتَرِ حَسائِسِ. لَكِنِّي لَمْ أَمُرَّ بِهَذَا قَبْلًا، لَمْ أَمُرَّ بِما فِي الأَصْحاحِ ٣ مِنْ سِفرِ أَيُوبَ قَطُّ. وَأَرْجُو أَلَّا أَمُرَّ بِما فِي الأَصْحاحِ ٣ مِنْ سِفرِ أَيُوبَ أَبَدًا. فَأَنَا لا أَتَمَنَّى أَنْ أَجتازَ بِما أَجتازَ أَيُوبُ بِهِ فِي هَذَا الأَصْحاحِ. لَكِنَّ بَعْضَ أبنائِ اللهِ قَدِ مَرُوا بِهَذَا قَبْلًا. أَحَدُ أَتَقَى البَشَرِ الَّذينَ عَرَفَهُمْ هَذَا العالَمُ عَلى الإِطْلاقِ قَدِ أَجتازَ بِهَذَا. إِنَّهُ أَيُوبُ نَفْسُهُ. وَإِرمِيَا النَّبِيُّ، فِي الأَصْحاحِ ٢٠ مِنْ سِفرِ إِرْمِيَا يَذْكُرُ ما فِي الأَصْحاحِ ٣ مِنْ سِفرِ أَيُوبَ. فَفي الأَصْحاحينِ ١٩ وَ ٢٠، بَعْدَما أَمْضَى اللَّيْلَةَ مُقَيَّدًا فِي المِقْطَرَةِ، ذَكَرَ هَذَا الأَصْحاحَ تَحْدِيدًا. إِذا، فَهِيَ كَلِمَةُ اللهِ المَعْصُومَةُ، وَسَتَعَلَّمُنِي أَمْرًا ما.

الأمر الثاني، يجب أن نراعي ما قد يمر به المؤمنون أو يجتازون فيه فعلاً. يجب أن نكون حساسين لذلك. ربّما هذا ليس اختياري. لكن قبل أن نصحروا بتعليقات إدانة وتلميحات إلى الآخرين، لا بد من أن نتحلّى بالإحساس الرهيف بحقيقة أن المؤمنين الآخرين، المسيحيين الآخرين، جازوا ومروا بظروف حالكه الظلمة.

أمّا الأمر الثالث الذي أود أن أقوله، ومن المهمّ تذكّره، إن الله لم يسارع إلى توبيخه. ربّما توقّعتُم التالي: أن يتدخّل الله ويقول لأيوب: "أيوب، لا يصح أن تقول أنت هذا. لا ينبغي لك أن تتفوّه بهذا الكلام". فما من توبيخ هنا. الآن، هل أرى أن أيوب تخطى حدوده؟ بكل تأكيد تخطى أيوب حدوده. بالطبع قد تخطى أيوب حدوده. فما من جدال بشأن ذلك. لكن نحن نستوعب الأمر. كما أننا متعاطفون معه. كما إلهنا، نعم، هذا الإله ذو السيادة، سنطرح أسئلة في غاية الصعوبة عن شخص الله فيما يتعلق بالمعاناة والألم، لكن إلهنا إله رؤوف أيضاً. لقد جاز ابنه في ظلمة حالكه كهذه، ولم ينطق بمثل هذه الكلمات، بل اختبر معنى الوجود في حالة لم يرعب أن يمر به. ففي بستان جنسيمان، كان الرب يسوع نفسه قال: "أما من طريق آخر؟ فأنا لا أريد أن أسير في هذا الطريق. أنا لا أرعب في أن تنكشف العناية الإلهية كما أراها تنكشف أماً". من المهمّ ملاحظة أن الله لم يسارع إلى توبيخه.

من ثمّ، الأمر الرابع الذي أرعب في رؤيته يتمثل في مبدأ. في الآية ١٥ من الأصحاح ٤ من الرسالة إلى العبرانيين نقرأ: "لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفائنا، بل مجرب في كل شيء مثلنا، بلا خطية". "يا أبتاه، إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت".

إنّ الرب يسوع المسيح كان يعلم ما يعنيه بأن يتركك الله. "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟" فقد افتقد داخله إلى الشعور بحضور الله ومحبتة، والشعور بإحسان الله وعنايته. لم يصرخ قائلاً: "أبي، أبي"، بل صرخ قائلاً: "إلهي، إلهي" كأن كل ما كان يدركه في تلك اللحظة هو أن الله قد تركه وهجره. وكذلك أيوب هنا في ذلك الأصحاح.

لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفائنا، بل مجرب في كل شيء مثلنا، بلا خطية.

الدكتور ديريك توماس هو الراعي الأساسي للكنيسة المشيخية الأولى في مدينة كولومبيا، بولاية ساوث كارولينا، وأستاذ استشاري لعلم اللاهوت النظامي والرعوي في كلية اللاهوت المصلحة. وهو عضو هيئة التدريس في خدمات ليجونير، وقد كتب العديد من الكتب، بما في ذلك كتاب "كيف يقودنا الإنجيل إلى موطننا" (How the Gospel Brings Us All the Way Home).